الفصل الثالث

نسيب عريضة الكاتب

١ ــ خيالات حمص :

« قصة ديك الجن الحمصي »

٢ ــ أصداء من تاريخ العرب :

« قصة الصمصامة »

١

خيالات حمص

« قصة ديك الجن الحمصى »

لا يستطيع الناقد أن يتحدث عن نسيب عريضة ككاتب من غير أن يرجع إلى قصته القصيرة : « قصة ديك الجن الحمصى — قصة حب شاعر عربى قديم » .

تحت هذا العنوان نُشرت القصة فى عام ١٩٢١ بين بضعة أعمال أخرى لكتّاب الرابطة القلمية .

وإذا بدأنا من النهاية نجد نسيب عريضة نفسه يتحدث عن قصته بعد أن فرغ من كتابتها فيقول : « هذه قصة الشاعر الحمصىّ : عبد السلام بن رغبان ، الذى لقّب بديك الجن . فقد أحب ، فقتل ؛ فندم ، فمات . روّتها إلىّ أمواج نهر العاصى همساً قبل غروب الشمس فى يوم من أيام الصيف . عندما كنت أقرأ بعض أشعاره فى كتاب قديم. وأكّدها لى النسيم العليل على الصخور الصلبة ، وخلال الريح الناعمة سمعت صوتاً هامساً يقول : « الحياة — ككل — تدور حول محور واحد ذى عمودين : الحب والموت »[1] .

وإذا رجعنا إلى ما كتبه كتاب السيرة الأقدمون عن ديك الجن وخاصة ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » وأبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » يمكننا أن نستخلص الحقائق التالية :

اسم الشاعر بالكامل هو : أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام ابن حبيب بن رغبان بن زيد بن تميم الكلبى ، عرف بلقب « ديك الجن ». وُلد فى حمص سنة ١٦١ هـ أى سنة ٧٧٧ م ومات سنة ٢٣٥ هـ أى سنة ٤٨٩ م ،

(١) مجموعة الرابطة القلمية لعام ١٩٢١ ص ١٤٠ .

وأصله من « سلَمية »[١] وكان خليعاً ماجناً منعكفاً على القصف واللهو ، متلافاً لما ورث عن آبائه ؛ وقد كتب شعراً جميلاً رقيقاً .

ويروى أبو الفرج قصة حب هذا الشاعر لفتاة مسيحية من حمص اسمها ورد[٢] وقد أصبحت قصة حبه معروفة فى حمص ، فطلب من الفتاة أن تسلم ، ثم تزوجها وعندما ضاقت به الحياة وواجهته المصاعب ، كان عليه أن يذهب إلى سلمية ، ليطلب المساعدة من أحمد بن على الهاشمى ، ومكث هناك بعض الوقت .

وكان لديك الجن ابن عم يقيم فى حمص ويكنى « أبا الطيب » ، كان يكثر من نصح ديك الجن ويمنعه من التمادى فى غيّه ، حتى لقد هجاه ديك الجن مرة ببضعة أبيات ، فانتظر أبو الطيب الفرصة لينتقم من ابن عمه . فما كان منه إلا أن اخترع قصة عن خيانة زوجة ديك الجن له وحبها لشاب غريب من حمص . وسرعان ما انتشرت هذه القصة الجديدة ، ووصلت إلى مسامع ديك الجن فى « سلمية » فاستأذن من مضيفه وأسرع عائداً الى حمص وكان ابن عمه الخادع قد دبّر لقاء بين الغلام وورد زوجة ديك الجن وقت وصوله : يقول أبو الفرج ،... وفرّ ابن عمه وقت قدومه فأرصد له قوماً يعلمونه بموافاته باب (حمص) ، فلما وافاه خرج إليه مستقبلا ومعنفاً على تمسكه بهذه المرأة بعد ما شاع ذكرها بالفساد . وأشار عليه بطلاقها ! ... ودسّ الرجل الذى رماها به وقال له : إذا قدم (عبد السلام) ودخل منزله فقف على بابه كأنك لم تعلم بقدومه وناد باسم (ورد) . فإذا قال : من أنت ؟ فقل : أنا فلان ! » ثم يصف أبو الفرج مواجهة ديك الجن للموقف وشعوره بالإهانة فاستل سيفه وذبح الزوجة المسكينة ، وبينما جثتها ملقاة أمام قدميه ، أخذ ينشد أبياتاً تصور غضبه ورثاءه لنفسه :

ليتنى لم أكن لعطفك نلتُ   وإلى ذلك الوصال وصلتْ

---

(١) مدينة صغيرة على مقربة من حمص ، شرق نهر العاصى فى سوريا .

(٢) يقول ابن خلكان إن اسمها « دينا » .

فالذى منى اشتملت عليـــه ولعارى ما قد عليه اشتملتُ
قال ذو الجهل قد حلمتَ ولا أعلم أنى حلمتُ حتى جهلتُ
لائم لى بجهله ولماذا أنا وحدى أحببتُ ثم قتلتُ
سوف آسى طول الحياة وأبكيـ ـك على ما فعلتِ لاما فعلتُ

ثم نظم أربعة أبيات أخرى تعكس تأثره بمأساته :

لك نفس مواتيه والمنـــايا معـــاديه
أيها القلب لا تعد لهوى البيض ثانيه
ليس برق يكون أخلب من برق غانيه
خنتِ سرّى ولم أخنك فـــرتى علانيه

ولما أرسل السلطان فى طلبه ، فرّديك الجن إلى دمشق ، ولكنه لم يمكث فيها طويلا ، فكتب أحمد بن على ، حاكم سلمية ، إلى أمير دمشق يطلب العفو عن دباك الجن ، فعاد الشاعر إلى دمشق . ولكنه سرعان ما أُخبر بالحقيقة ، وعرف سرّ المؤامرة وآمن ببراءة زوجته الفقيدة. يقول أبو الفرج « فندم ومكث شهراً لا يستفيق من البكاء ، ولا يطعم من الطعام إلا ما يقيم رمقه » وقد نظم الأبيات التالية مؤنباً نفسه على تسرعه وسوء تصرفه :

يا طلعة طلع الحمام عليها فجنى لها ثمر الردى بيديها
روّيتُ من دمها الثرى ولطالما روّى الهوى شفتىّ من شفتيها
مكّنت سيفى من مجال وشاحها ومدامعى تجرى على خدّيها
فوحقّ نعليها ، وما وطئ الحصى شىءٌ أعز على من نعليها
ما كان قتليها لأنى لم أكن أبكى إذا سقط الغبار عليها
لكن ضننتُ على العيون بحسنها وأنفت من نظر الحسود إليها

هذه الحادثة التاريخية والاجتماعية الصغيرة أوحت إلى نسيب أن يكتب قصته التى شغلت خمسة وثلاثين صفحة من مجموعة الرابطة القلمية . لقد استخدم خياله وحمّلها بعض آرائه الشخصية وأفكاره الاجتماعية . وقد يكون من المفيد أن نلخص القصة كما رواها نسيب قبل أن نعلق على أسلوبه وصوره :

تبدأ القصة فى الربيع حين كانت الأرض مفروشة ببساط أخضر والهواء نقيًّا منعشاً ، وكانت السماء فى ذلك المساء البهيج زرقاء داكنة تتلألأ فيها النجوم وكانت تُسمع أصوات المتنزهين الذين جلسوا فى مجموعات هنا وهناك . وكانت أعلى الأصوات تخرج من مجموعة تحيط بالشاعر الحمصى الوسيم والمشهور : عبد السلام بن رغبان وصديقه بكر . وفجأة توقف الغناء والشراب بمجيء ابن عم عبد السلام الذى يدعى « أبا الطيب » ، فقد هددهم أن يخبر القاضى إذا ظلوا على غيّهم وعدم احترامهم للدين . وعرف عبد السلام أنه المعنىّ بذلك التهديد فغادر المجموعة ومعه صديقه بكر حتى لا يعكرا صفو الماقين « ويتوغلان فى غياض الميماس حتى يصلا إلى الجسر قرب الطاحون التى بناها الرومانيون على العاصى » .

وفيما هما يتجولان على ضفة العاصى سمعا أصوات غناء آتية من بعيد . فاقتربا ، وإذا بمجموعة من الحسان يغنين « وسطهن غادة يشعّ منها الجمال ويقطر منها الدلال ترقص رقصاً مدهشاً فتأخذ حركاتها بمجامع القلوب » لقد أحبها الشاعر وحاول أن يعرف اسمها الذى أخبرته إياه بعد أن أنبته لاقترابه وصديقه منهنّ ؛ فقد كنّ فتيات مسيحيات من عائلات معروفة فى حمص خرجن ليلهون ويفرحن فى أول ليالى الربيع ، بعيداً عن العيون .

ولكن هذا زاد فى حب عبد السلام للفتاة حتى طلب منها أن تتزوجه غير آبه بفرق الدين بينهما ، فهى نصرانية وهو مسلم . وأصبحت حادثة زواجهما وحبهما حديث الموسم فى حمص .

لقد أصبح ديك الجن سعيداً بحبه غاية السعادة وصار يحب الناس جميعهم مما أغضب ابن عمه الحسود الحقود أبى الطيب ، الذى أخذ يفكر فى الانتقام ، ونجح فى قلب سعادة عبد السلام إلى تعاسة حقة . بدأ بأن طلب من ديك الجن أن يرد له المال الذى استدانه منه . ولما كان ديك الجن لا يملك المال اضطر إلى السفر إلى « سلمية » ليحصل عليه من صديقه الأمير أحمد بن على الهاشمى . وفى أثناء غياب ديك الجن أشاع إشاعات عن سوء سلوك « ورد » واتهمها بحب

بكر صديق ديك الجن. ووصلت الإشاعات إلى أسماع ديك الجن فأسرع عائداً إلى حمص حيث كان أبو الطيب قد أطلق إشاعة أخرى عن موت الشاعر وأرسل بكراً إلى « ورد » لينقل إليها الخبر السيء . وصادف وصول ديك الجن فى نفس الوقت ورآهما معاً ففقد أعصابه وقتلهما فى لحظة غضب .

ولما عاد عبد السلام إلى رشده أحس بثقل جريمته وفرّ إلى دمشق . وبعد مرور سنوات ، علم الحقيقة على لسان بعض أصدقائه الذين سمعوها من ابن عمه قبل موته . لقد انهارت أعصابه ولم يجد عزاء فى شيء سوى نظم الشعر وكتابته فى رثاء أحب شخصين إلى قلبه ، فقدهما بسبب شكوكه وتسرعه .

يمكننا أن نلاحظ أن نسيب عريضة قسم أحداث القصة إلى خمسة أقسام :

فى القسم الأول يقرّر نسيب الزمان والمكان للأحداث الأولى ؛ فقد كان الوقت ربيعاً واتخذت الأحداث مجراها فى متنزه « المياس » المشهور فى حمص . وهذا أعطاه الفرصة لاستخدام خياله فى وصف مساء يوم هادىء دافىء من أول أيام الربيع ، بعد ليالى الشتاء الباردة . ولا شك أن الشاعر يتذكر هنا الأمسيات التى قضاها هو نفسه فى حمص قبل عشرين سنة .

وكانت مجموعة المتنادمين مسرورة بالحديث والشراب والاستمتاع بالحياة ولكن طبيعة نسيب وروحه المتشائمة تغلبتا عليه فجأة فعبر عن مخاوفه من المستقبل بوصف حالة بكر، عندما تحدث إلى صديقه فجأة عن بعض الأحداث غير المعروفة التى قد تعكر صفو حياتهم المقبلة . ويتعجب الشاعر من مخاوف صديقه وينصحه أن ينشد النسيان بالشراب . وهنا تلوح لنا ومضة من حيرة نسيب عريضة بين الخير والشر ، وبين الخوف والسرور . لقد أصبح فى حالة أبيقورية وأخذ يبشر بتعاليم عمر الخيام ، وهذا راجع إلى أن ديك الجن نفسه كان يؤمن بهذه الآراء ، وكثيراً ما حاول أن يحصل من الحياة على رغباته قبل أن يحل به الموت .

ثم ظهر أبو الطيب على مسرح الأحداث، وأخذ يؤنب المجموعة اللاهية

ويحضهم على عدم الشرب ، وهددهم بنقل أمرهم إلى السلطان إذا استمروا على غيّهم .

وبدأ دور جديد فى هذا القسم من القصة عندما ترك ديك الجن وصديقه بكر المجموعة وأخذا يتجولان بين المروج وفى حدائق الميماس ، تلك البقعة التى مازال نسيب يذكرها جيداً ، وخاصة منظر الجسر قرب الطاحونة الرومانية ، والطريق المؤدى إلى ضواحى حمص الشمالية . ويصف نسيب ديك الجن بأنه كان بائساً جداً وموزعاً بسبب الإهانة التى لحقته من تأنيب ابن عمه .

وفجأة سمع ديك الجن وصديقه أنغاماً من الموسيقى والغناء ، فاتجها نحو الأصوات عابرين الجسر فى طريقهما إلى الغابة القريبة حيث وجدا ناراً موقدة تجلس حولها العذارى الجميلات « فى ثياب بيضاء يشبهن سرباً من عذارى الجن » ، يعزفن على آلاتهن الموسيقية ويغنين . بينما أخذت « ورد » ترقص فى وسطهن . « وسطهن غادة يشع منها الجمال ويقطر منها الدلال . ترقص رقصاً مدهشاً فتأخذ حركاتها بمجامع القلوب » . وعندما فرغت من الرقص أخذت بقية الفتيات يرقصن فى دائرة ، فى حين حملت هى نايها وأخذت تغنى على أنغامه بيتين من شعر ديك الجن ، مما ملأ قلبه سروراً وأزال عنه الكآبة حتى لقد هتف لها مستحسناً .

فلما سمعت البنات صوت الاستحسان تراكضن مذعورات . وتقدمتهن « ورد » وفى يدها مصباحها « فإذا هى على جمال لم يخلق الله مثله » وظهر الصديقان أمام الفتيات ، ودفع سرور القلب ديك الجن إلى أن يتقدم بشجاعة ويعتذر عما حدث ، بحجة أنهما غريبان ظمآنان يريدان ماء . ولكن هذا العذر لم يكن كافياً ليقنع الفتاة ببراءتهما ، فما كان من بكر إلا أن كشف عن شخصيته وعن شخصية صديقه الشاعر الحمصى ، واعترف بأنهما قد جذبهما الغناء ، خاصة لبيتى ديك الجن . ولكن الفتاة لم تصدق أن هذا الذى يقف أمامها هو الشاعر الحمصى المشهور . «ديك الجن» . فطلبت منه أن يرتجل أبياتاً

من الشعر حتى يبرهن على صحة كلامه وكلام صديقه ، فأخذ فى الحال ينشد أبياته المشهورة :

قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى وقت الوَسَنْ
كى أستريح وتنطفى نار تؤجج فى البدنْ
دِنفٌ تقلبه الأكفّ على فراش من شَجَنْ
أما أنا فكما علمتِ فهل لوصلك من ثمن

واستحسنت الفتاة الأبيات ، ولكنها لم تقتنع تماماً إذ — كما قالت — قد تكون الأبيات لشاعر آخر وحفظها الرجل الذى أمامها . فأصر ديك الجن على أن يجعلها تصدقه بأن أخذ يغيّر فى قافية كل بيت بأن يضع مكان الكلمة الأخيرة كلمة أخرى تحمل نفس المعنى تقريباً . فاستخدم الكلمات التالية أولا : المنام — العظام — سقام — دوام . ثم غير مرة أخرى باستخدام الكلمات : الرقاد — الفؤاد — قتاد — معاد . وأخيراً غير باستخدام : الهجوع — الضلوع — دموع — رجوع . وهنا صدقته الفتاة ، ولكنها أنبته وصديقه على تدخلهما فى جلستها وصديقاتها ، خاصة وأنهن كن يحتفلن بيوم الاثنين الأول فى الربيع المسمى عند المسيحيين « اثنين الراهب » . وبعد حوار لطيف بين الشاعر والفتاة سألها عن اسمها فأجابت « ورد بنت الناعمة » . فاعترف الشاعر بحبه لها ولقب نفسه « عبد ورد » بدل « عبد السلام » . ربما لجأ نسيب هنا إلى المبالغة بعض الشيء ليعبر عن آرائه فى هذا الحب المشترك بين الشاعر المسلم والفتاة المسيحية ، وذكر على لسان ديك الجن مثلين يؤكدان أهمية التسامح فى الدين .

ويبدأ القسم الثانى من القصة بوصف رومانتيكى لحالة ديك الجن بعد أن تأكد من عميق محبته لورد ، ولكنه أدرك أن بعض المصاعب ستقف فى الطريق نظراً لاختلاف الدين ، خاصة وأنه كان هناك نوع من العداء فى ذلك الوقت بين المسلمين المنتصرين والنصارى المغلوبين الذين لم ينسوا أنهم كانوا يوماً سادة البلاد (وكانت هذه الحال سائدة فى سوريا ولبنان عندما غادرها نسيب فى السنوات الأولى من هذا القرن) .

كان الوقت قبل الفجر بقليل ، واستيقظ ديك الجن بعد ليلة هجره فيها النوم ، فوجد نفسه يسير خارج البيت حتى وصل إلى غابة أشجار الحور حيث أغفى قليلا . وفجأة سمع أصوات الفتيات وهن يتنادرن على ورد ويتهمنها بحب ديك الجن . ولم يصدق عبد السلام أذنيه ، فهل حقاً هى تحبه وتفكر فيه ؟ وشعر بميل إلى تتبع الفتيات ليعرف أين سيذهبن . وتوقفن على جانب النهر ، وبسرعة نزلن إلى الماء ليسبحن ويستمتعن بأوقات مرحة . ومن مكان اختبائه استطاع أن يميز ورداً بين صديقاتها عندما سمع فجأة صوت صراخ الفتيات واستغاثتهن ، ولم يجد ورداً بينهن فحدس أنها تكاد تغرق فى النهر ، ولما كان ديك الجن سباحاً ماهراً رمى نفسه فى الماء وخلص محبوبته . وعندما استفاقت الفتاة وعرفته ، ألقت بنفسها بين ذراعيه ، وذاع حبهما فى حمص . ثم كان العرس « فاشترك فيه بنو الإسلام وإخوانهم بنو النصرانية ، نازعين الأحقاد من قلوبهم » ؛ وأنشد ديك الجن أبياتاً من الشعر .

تصل قصة نسيب إلى قمتها فى القسم الثالث ، حين كان ديك الجن وزوجته يعيشان فى سعادة غامرة غير عارفين بما تخبئه لهما الأيام . وكان بكر ، صديق عبد السلام ، يزورهما فيسعد لسعادتهما .

ولكن أبا الطيب أثبت لؤمه وخسة طباعه ، وأثمرت طبيعته الحاسدة خطة يدمر بها سعادة ابن عمه . بدأ الخطة بطلب المال الذى استدانه منه عبد السلام ولما لم يستطع ديك الجن رد المال ، لأنه كان مسرفاً غير مقتصد ، ذهب إلى « سلمية » ليطلبه من صديقه أحمد بن على . وبلغت به الطيبة أن أوصى أبا الطيب بزوجته أثناء غيابه عن حمص .

وتظهر طبيعة نسيب القلقة وتشاؤمه عندما يجعل بكراً يحدث عبد السلام بمشاعره ، وخوفه من ألا يلتقيا ثانية . واغتنم أبو الطيب الفرصة ، فأخذ يزور ورداً ويتظاهر بالاهتمام بها ولكنها تجاهلته ولم تعبأ به ، فاستيقظت فى نفسه شهواتها الدنيئة فحاول أن ينالها مرة ولكنها صدته ودافعت عن نفسها ، ففر هارباً من النافذة فى الوقت الذى وصل فيه بكر ومعه الأخبار عن ديك الجن

وتأخيره الاضطرارى . ولم تخبر ورد بكراً بشيء مما حدث ،ولكنها طلبت منه أن يكتب لزوجها ويحثه على الحضور فى الحال .

وفكر أبو الطيب الدنىء فى مؤامرة ينهى بها حب ورد لزوجها وفى نفس الوقت يخفى سوء سلوكه . فكتب رسالة إلى ديك الجن يخبره أن زوجته تخونه مع بكر ، وأن أخبارهما انتشرت فى المدينة ، وأعطى الرسالة إلى صبى وطلب منه أن يسلم الرسالة لديك الجن وأن يبقى معه حتى يغادر سلمية ثم يأتى قبله إلى حمص ويخبر أبا الطيب بوصوله .

ومرت أيام قليلة جاء بعدها الصبى مسرعاً إلى أبى الطيب يخبره بعودة ديك الجن . فأرسل أبو الطيب إلى بكر ، وعلم الصبى قصة مختلقة يعيدها أمام بكر تدورحول عودة ديك الجن ومقتله فى الطريق من قبل بعض اللصوص ، وتظاهر أبو الطيب بالحزن والأسى وطلب من بكر أن يحمل الأنباء السيئة إلى ورد . وأن يعمل جهده فى تعزيتها والتخفيف عنها بينما يذهب هو لإحضار جثة ديك الجن .

وخرج أبو الطيب إلى « باب تدمر » ليقابل القافلة التى فيها ديك الجن . ولما رآه أخبره بنبأ خيانة زوجته ، وظل يحكى عن ورد حتى وصلا البيت فى اللحظة التى كان فيها بكر ينقل النبأ الحزين إلى الزوجة المخلصة ويحاول التخفيف عنها ، فقد أغمى عليها فحاول أن يردّ إليها وعيها . ولما رأى عبدالسلام هذا المنظر ، تأكدت له أنباء الخيانة وبمشاعر الغضب الشديد والكبرياء المهان سل سيفه وأغمده فى صدر زوجته وفى صدر صديقه « وانسلّ فى الظلمة مطمئن البال ، عالماً أن الموت قد أخرس شفتين كان موته منوطاً بهما » .

وكان أبو الطيب ينصت وراء الباب ، فسمع صياح الرجل والمرأة ، واغتبط لتنفيذ خطته الكريهة وخرج مختبئاً بظلام الليل .

وعند قراءة القسم الرابع من قصة نسيب عريضة ، يمكننا أن نتخيل سكان مدينة حمص وهم يتكلمون مرة أخرى عن الشاعر المسلم المحبّ ، والفتاة المسيحية التى كانت من عائلة معروفة فى المدينة ،ولكنهم يتكلمون هذه المرة بمشاعر

الحزن والشفقة ، غير مصدقين أن العش الزوجى السعيد الذى بنى قبل أقل من سنتين ، قد هُدم واندثر .

وشعر السلطان نفسه بغرابة ما حدث ، وبعث رجاله فى البحث عن ديك الجن الذى كان قد فرّ إلى دمشق حيث مكث بعض الوقت ، حتى تدخل صديقه الذى فى سلمية « أحمد بن على » فعفا عنه السلطان .

وبعد أن عاد ديك الجن إلى حمص شعر بوحدة قاسية ولا أحد بجانبه يفهم مشاعره أو يشاركه أساه العميق . وما أحزنه أكثر من أى شىء هو علمه بوفاة أبى الطيب ، وكشفه سر المؤامرة قبل موته ، مما زاد فى عذابه وضاعف حيرته ووجوده المتزعزع . فعكف على الشراب ، وكان يستعمل كأسين ، إحداهما صنعها من تراب قبر ورد ، والأخرى صنعها من تراب قبر بكر ، أحب مخلوقين إلى نفسه واللذين غدت حياته بعدهما لا معنى لها .

ويحدث موت الشاعر نفسه فى القسم الأخير من القصة التى كتبها نسيب عريضة .

لم تفد السنوات بمرورها فى أن ينسى ديك الجن ذلك الجرم الذى ارتكبه فى لحظة غضب . وملأ الأسى والندم حياته وأذبلا جسمه الضعيف .

وفى ذات يوم من أيام الربيع ، وبتأثير وهم سيطر على ديك الجن ، شعر بالدفء والقوة ، فحاول مواجهة الحياة من جديد ، ولكن قوة خياله قد أخفقت لأن طيف ورد لم يزره كعادته منذ وفاتها ، فعرف أن نهايته قد اقتربت ، وأنشد بصعوبة يقول :

أما آن للطيف أن يأتيا وأن يطرق الوطن الدانيا
وإنى لأحسب ريب الزمان يتركنى جسداً باليا
سأشكر ذلك لا ناسيا جميل الصفاء ولا قاليا
وقد كنت أشكره ضاحكاً فقد صرت أشكره باكيا

وفى الصباح التالى ، وُجد ديك الجن جثة هامدة تجمدت دموعه ووصلت روحه إلى غايتها .

وفى تعليقنا على رواية نسيب عريضة لقصة الحب المشهورة فى الأدب العربى القديم ، يمكننا أن نجمع الملاحظات التالية :

أولا : يمكننا أن نسأل عن السبب الذى من أجله اختار نسيب هذه القصة من بين جميع قصص الحب للشعراء العرب التى تمتلئ بها كتب الأدب ؟

وجواباً على ذلك يمكننا القول بأن الشاعر كان من بلدة نسيب عريضة « حمص » وربما كان مروره على أحداث القصة فى أحد الكتب العربية التى كان يطالعها فى مكتبة نيويورك العمومية قد أشعل حنينه الدائم إلى بلدته ، وجعله يتخيل فصول القصة ومناظرها على شاطئ نهر العاصى الذى كان يشتاق إلى رؤيته . وفى ص ١١٨ من المجموعة نقرأ مايلى :

إن حب نسيب للطبيعة قد جعله يصور مجموعة من الأخيلة فى وصف بعض المناظر التى ما يزال يذكرها فى الوطن . وربما كان هناك سبب آخر لاختيار نسيب ، هو أن عبد السلام بن رغبان كان مسلماً بينما كانت الفتاة مسيحية ، والحب لا يعرف الفروق ، وكان المهاجرون من المسيحيين يكررون القول بأن « الدين لله والوطن للجميع »[١] .

ثانيا : تكشف القصة عن بعض آراء نسيب فى الحياة ومثاليته وتأملاته فى الأخلاق الإنسانية ، ويصف الزوجة المثالية كما رآها فى «ورد» : « كل هذه المملكة الواسعة موجودة فى امرأة حلوة جميلة ، نقية مرحة مثل أشعة الشمس ، رقيقة كأنفاس طفل ، شفافة ولطيفة مثل ذرات الأثير القريبة من عرش الله »[٢] .

ويبدو تسامحه وطبيعته الكريمة فى حديثه عن أبى الطيب الذى نسى ديك الجن عداءه وحيله الشيطانية ؛ فإن الحب يطهر النفس ، ويسمو بالمشاعر ولا يترك مكاناً للنزاع :

---

(١) هناك تأكيد لهذا السبب فى مجموعة الرابطة القلمية ص ١١٧ و ١٢٢ .

(٢) المجموعة ص ١٢٤ .

« أنا لا أهجو الإنسان الذى كان السبب فى ظهور القمر الكامل فى سماء حياتى المظلمة ، ولا أشتم ذلك الذى أرشد خطاى نحو الجنة الواسعة التى لقيت فيها السعادة والراحة » .

وهذه النقطة التى ذكرناها الآن يمكن أن تؤخذ ضد نسيب عريضة كما فعل الأستاذ عبد الكريم الأشتر فى كتابه عن الأعمال النثرية لأعضاء الرابطة القلمية . فقد اتهم المؤلف نسيباً بتغيير شخصيات القصة الحقيقية ؛ فصوّر ديك الجن كرجل عاقل نبيل ، رقيق القلب ، يغضى على شر ابن عمه[١] ولاحظ الكاتب كذلك أن بكراً صديق ديك الجن قد صُور بصورة الإنسان المخلص العفيف بينما أبو الفرج صوّره بصورة مختلفة تماماً ، والمعتقد أن هذا بتأثير نزعة نسيب عريضة الذاتية ؛ فلا يمكنه أن يبعد نفسه عن الشخصيات ، وفى الحقيقة أن صوته هو الذى يتكلم بوضوح تام من خلال بعض تلك الشخصيات . إنه يحاول أن يجعل شخصياته شخصيات مثالية ، فهو يتطلع دائماً إلى الكمال . لم يصور سوى أبى الطيب كرجل مكروه شرير ووصفه بأنه كان قصير القامة دميم الخلقة .

ثالثا : كثيراً ما انعكس شعور نسيب بالغربة وعدم فهم الناس له على بعض أقسام القصة . إنه يتحدث عن الشعور بالخسارة والوحدة بعد رحيل المحبوبين[٢] . وتعتريه حالة الشعور بالوحدة عندما يصف حالة ديك الجن[٣] ، وتسيطر الحيرة على تخيلاته عندما يتأمل فى الأيام الأخيرة من حياة الشاعر الحمصى فالحزن يعتريه بصورة واضحة . ويسود الصمت العميق قبل موت ديك الجن مباشرة[٤] .

وفى الواقع ، يصف نسيب مأساة الشاعر القلق الذى لم يقتنع بأحوال عصره ، إنه يعنى حياة الشاعر العباسى ، وهكذا كانت حياته هو أيضاً ، كشاعر حديث .

---

(١) عبد الكريم الأشتر : كتاب الرابطة القلمية ج ٢ ص ١٣١ .
(٢) المجموعة ص ١٢٦ .
(٣) المجموعة ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(٤) المجموعة ص ١٣٩ .

رابعاً : كان نسيب عريضة مشهوراً بقراءته الواسعة فى التاريخ العربى القديم والأدب العربى كذلك ، وقد أثرت فيه تلك القراءات تأثيراً عميقاً ، ووجد من المناسب استخدام بعض الأحداث التى قرأ عنها فى حادثة مماثلة فى حياة الشاعر الجاهلى « امرئ القيس » الكندى والتى يذكرها فى أبيات من قصيدته المعروفة فى قوله :

ويا رُب يوم لك منهن ولا سيما يوم بدارة جُلجل

ويحكى أن محبوبته « فاطمة » أو « عُنَيْزه » كانت تستحم فى النهر مع صديقاتها عندما فاجأهن بمجيئه . وتنتهى الحادثة بصورة مختلفة عن رواية نسيب لحادثته ، ولكن ربما كان الأصل واحداً .

خامساً : ليست كل صور نسيب واضحة أو دقيقة فى ملامحها ، وكثيراً ما يكرر نفسه ، ويصبح وصّافاً أكثر منه مصوراً أو محللا ، فيستخدم الصفات المزوّقة مكرراً نفس المعنى[١] إن حادثة خلاص ورد من الغرق مملوءة بمثل هذه الأمثلة[٢] ولا يذكر نسيب شيئاً من أبيات ديك الجن فى هجاء أبى الطيب ، وهى التى كانت السبب الأول فى غضبه ونيته فى الانتقام لنفسه . وبعض هذه الأبيات مذكورة فى سيرة ديك الجن ، وقد نقل الكاتب المعروف بالبدوى الملثم واحداً منها فى كتابه ، ذاكراً أن ديك الجن كان يسمى ابن عمه أبا الخبيث بدلا من أبى الطيب .

سادساً : ليس أسلوب القصة أبدع ما كتب نسيب ، فهناك بعض نقاط الضعف ، سواء فى استعمال الكلمات أو بناء الجمل ؛ فى أحد تشابيهه نجد الشاعر : « كالزهرة خلعتها يد اليقظة من حدائق الأحلام والأمانى » . وعندما قفز ديك الجن إلى الماء لينقذ ورداً وصفه نسيب بقوله : « فخاض عباب

---

(١) ويذكر الدكتور عبد العزيز عبد المجيد هذه الصفة كنقطة ضعف عامة فى القصة القصيرة العربية ، ذلك فى كتابه بالإنجليزية : Modern Arabic Short Story

(٢) ذُكرت نفس الحادثة بصورة أفضل وأكثر طبيعية وذلك فى كتاب صغير باسم « عرس ومأتم » بقلم « البدوى الملثم » ص ٥٠ .

الأمواج » وهو تعبير مستهلك . ثم يقول نسيب : « حتى خرج بعد دقيقة من بين الأمواج الفاغرة فاها » مع أنه وصف النهر قبل قليل بالهدوء والسكينة : « والنهر وقد سال مترقرقاً لا أثر فيه لشكوى الخرير » . وهذه الأساليب يمكن ردها إلى ولع العرب بالمبالغة والأداء الرومانتيكى فى القصة العربية القصيرة[١] .

ومن بين نقاط الضعف فى قصة نسيب ، تلك المصادفات الغريبة التى تحدث هنا وهناك ؛ من ذلك خروج الفتيات إلى الغابة فى نفس الصباح الذى خرج فيه ديك الجن وصديقه بعد ليلة قلقة . وجعل الكاتب ورداً هى نفسها التى تشرف على الغرق حتى ينقذها ديك الجن ، كذلك الطريقة التى عاد فيها الوعى إليها ، كما وصفها نسيب : « ركع ديك الجن على ركبتيه أمام الجثة ، كما يركع المؤمن أمام ربه فى صلاة خاشعة . وتمتمت روحه صلاة متحمسة لا تكفى فيها التعبيرات البشرية . ثم نبع من قلبه نداء مؤلم كنداء العاصفة تختزن داخلها كل معانى الرجاء والأسى . لم يستطع التحمل أكثر من هذا ، فانحنى فرق الجثة وأخذ يبكى ، فكأن دموعه الساخنة قد اخترقت دروع الموت الباردة ، ورُويت فتيلة الحياة الذابلة بالزيت الساخن ، ثم أنارت حتى سرى الدفء فى أوردة الغريق ، وبدأ القلب ينبض بضعف .. إلخ » .

ولا يتقيد نسيب بالأحداث الأصلية للقصة التاريخية . وفى الواقع أن الروايات العديدة لنهاية القصة تختلف اختلافاً واضحاً : بعضهم يروى مقتل بكر وورد معاً ، وبعضهم يروى مصرع ورد فقط . ويميل نسيب لتصديق الرواية الأولى ، يبدو أنه يجدها أكثر تأثيراً ومأساوية . ولا يكفى هذا ، بل يحاول نسيب أن يعلى من تأثير المأساة ؛ فيجعل الأخبار تنتشر عن موت ديك الجن فى طريق عودته من سلمية . ويجعل بكراً يحمل النبأ الحزين إلى ورد ، فيغمى عليها ، ويحاول مساعدتها وإيقاظها ، فيدخل ديك الجن فى هذه اللحظة الحرجة ، وتتغلب عليه الغيرة العمياء ، ويسيطر عليه حب التملك مما يجعله يرتكب هذا العمل الدرامى المؤسف . إن القارئ ليشعر أن نسيب

---

(١) د . عبد العزيز عبد المجيد : « القصة العربية القصيرة » بالإنجليزية .

عريضة المثالى ، الرومانسى ، والحب للسلام يريد أن يقدم كل الأدلة التى يمكنه التفكير فيها حتى يخفف من وقع الجريمة ويجعلها أمراً طبيعياً مغفوراً . إنه يحاول أن يشعر مع ديك الجن ، بدل أن يحتقر القاتل لارتكابه الجريمة .

وفى ختام تعليقنا على هذه القصة ، نجدها قد نجحت بوجه عام ، وأحدثت تأثيراً فى قراء القصة القصيرة فى الأدب العربى الحديث ؛ فبعض الكتاب الشباب حذوا حذو نسيب واختاروا نفس الموضوع لكتابة قصص من أخيلتهم ؛ فتلك القصة التى بعنوان « عرس ومأتم » بقلم البدوى الملثم ، تعد نسخة أخرى من قصة نسيب تقريباً[١] . كما كتب الكاتب اللبنانى رئيف خورى قصة أخرى مشابهة وسماها « ديك الجن أو الحب المفترس » وقبل ذلك فى عام ١٩٣٥ ، كتب محمد الطيب الجبلاوى تمثيلية شعرية قصيرة وسماها « ديك الجن الحمصى » وطبعها فى مدينة « المنيا » فى مصر . وبعد وقت قصير كتب كاتب أردنى شاب تمثيلية شعرية قصيرة جداً ، أخرجت ومثلت فى البرنامج العربى من هيئة الإذاعة البريطانية تحت اسم « مأساة ديك الجن » .

ونحن نرى أنه — رغم تقديرنا لمجهود نسيب فى قصته — إلا أنا نتمنى لو كان قد كتبها بأسلوب مسرحى شعرى ، خاصة أنه كان كشاعر أعظم منه ككاتب نثرى ، ولو كان قد فعل ذلك ، إذن ، لافتخر الشعر العربى الحديث بمسرحية شعرية مأساوية لا تقل أهمية عن مسرحية شكسبير المعروفة « عطيل » فكلاهما فى نفس الموضوع ، وفيهما نفس المؤامرة ، وتبحثان أمراً مشتركاً من حيث السلوك الإنسانى ، والدوافع البشرية من الغيرة التى تعمى وتؤدى إلى مثل هذه النهاية . وإذا طالعنا ما كتبه بعض النقاد عن مسرحية شكسبير الخالدة نجد الناقد البريطانى البروفسور ف . ليفز يقول عن « عطيل » :

"The tragedy is the undoing of the noble moor by the devillish cunning of Iago"

« إن المأساة تكمن فى انهيار المغربى النبيل بواسطة دهاء ياجو الشرير » .

---

(١) طبعت فى القاهرة سنة ١٩٥٩

(٢) F.R. Leavis : The Common Pussuit p. 137

ونشعر أنه يمكننا نقل كلمات البروفسور ليفز بالنسبة لقصة نسيب بجعل الشاعر العربي ديك الجن فى مكان عطيل ، وأبى الطيب الماكر فى مكان إياجو . ثم يقول البروفسور ليفز :-

"It was external evil, the malice of the demi-devil, that turned a happy story of romantic love into a tragedy". (1)

« لقد كان شرًّا خارجيًّا ، خبث شبيه الشيطان الذى حول القصة السعيدة من الحب الرومانتيكى إلى مأساة » .

وقد بحث النقاد أمر الغيرة فى كل من القصتين ، فبالنسبة لعطيل لم يكن واضحاً ما إذا كانت الغيرة وحدها هى التى جعلته يقدم على فعلته أم أن ثقته قد تزعزعت :

"He is confused and deeply troubled, he feels even horror; but he is not yet jealous in the proper sense of the word". (2)

« إنه مرتبك ومتألم بعمق ، بل يشعر بالرعب ، ولكنه ليس غيوراً بالمعنى الصحيح للكلمة » .

وهذا الأمر مشروح بوضوح فى كلمات شكسبير نفسه فى المسرحية :

Haply, for I am black
And have not those soft parts of conversation
That chamberers have, for I am declined,
Into the vale of years - yet that's not much-
She's gone; I am abused, and my relief
Must be to loathe her. O curse of marriage
That we can call these delicate creatures ours
And not their appetites! I had rather be a toad
And live upon the vapour of a dungeon,
Than keep a corner in the thing I love
for other's uses.

« ربما لأنى أسود ، ولا أملك ذلك النوع الناعم من الحديث الذى يملكه العشاق .

---

(١) F.R. Leavis : The Common Persiut. p. 137

(٢) Ibid., p. 139

لقد سقطت فى هوة السنين ، وهذا ليس بكثير .

لقد ذهبت . إنى مخطئ مهموم ، وخلاصى فى تركها والاشمئزاز منها . إنها لعنة الزواج ، أن ندعى أن تلك المخلوقات الرقيقة ملك لنا ، ولسن ملكاً لشهواتهن .

إنى أفضل أن أكون ضفدعاً وأرقد فوق أوساخ سجن القلعة من أن احتفظ بركن فى الشيء الذى أحبه ، من أجل استعمال الآخرين » .

وفى الواقع ، أن كلمات السطرين الأخيرين من كلمات شكسبير تذكرنا ببيت ديك الجن عندما سمع بخيانة زوجته .

خيفة أن يخون عهدى وأن يضحى لغيرى حجوله ورعائه

وقد عبر عن ذلك البروفسور ليفز بالتحليل الآتى :

"It may be love, but it can be only an oddly qualified sense of love of her : it must be much more a matter of self-centred and self-regarding satisfaction - pride, sensual possessiveness, appetite, love of loving -than he suspects" (3)

« قد يكون حباً ، ولكن لن يكون سوى شعور غريب بحبها ، إنه أكثر من هذا : شعور بالأنانية وتقدير النفس ؛ شعور بالكبرياء والملكية الحسية ، والشهوة ، وحب الحب ، أكثر منه شعور بالشك والارتياب » .

وقد أكد شكسبير هذه المسألة مرة ثانية فى كلمات « عطيل » عند تصميمه على ارتكاب جريمته :

Yet she must die, else she'll betray more men.

« يجب أن تموت لئلا تخون رجالا آخرين » .

وهناك نقطة أخرى مشتركة بين المأساتين هى : شعور الندم الذى تلا ارتكاب الجريمة ، ففى مسرحية شكسبير نجد أن اكتشاف الجريمة ورد

---

(١) Ibid., p. 145

الفعل عند عطيل بعد تسرعه الأحمق ، يجعل القارئ يشعر معه بدلا من أن يحتقره :

Whip me, ye devils
From the possession of this heavenly sight!
Blow me about in winds! roast me in sulphet!
Wash me in steep down gulfs of liquid fire!
O Desdemona, Desdemona! dead!
Oh! Oh ! Oh !

« اضربونى بالسوط ، أيها الشياطين ،

ابعدونى عن مجال هذا المنظر السماوى !

انثرونى كالريح ! اشوونى بالكبريت ، واغسلونى فى أعماق النار السائلة :

آه ياديدمونه ، ديدمونه ! الميتة ! آه ! آه ! آه ! » .

ولكونه رجلا عسكرياً وجد عطيل الشجاعة الكافية ليواجه الموت بنفس الطريقة التى جعل زوجته المحبوبة تواجهه قبل دقائق . وبطريقة أقل مأساوية ، ولكن ليست أقل تأثيراً فى العواطف . أنهى نسيب مأساته بموت ديك الجن فى يوم من أيام الربيع ، مثل ذلك اليوم الذى التقى فيه بفتاته قبل سنوات قليلة .

إن كلمات « عطيل » القليلة فى خطابه الأخير الرائع ، تصف ببراعة ذلك النوع من الحب الذى قاد الرجلين إلى نهايتهما المحزنة :

Then must you speak
of one that loved not wisely but too well.

ثم يجب أن تحكى قصة إنسان أحب حباً جارفاً ، ولكن دون تعقل » .

٢

أصداء من تاريخ العرب

« قصة الصمصامة »

« السيف أصدق أنباء من الكتب »
أبو تمام

خصص نسيب عريضة العدد الذى صدر فى يوليو سنة ١٩١٨ من مجلة « الفنون » للقومية العربية ، التى كان يمثلها فى ذلك الوقت الملك الحسين الأول ، ملك الحجاز . وبالنظر فى العناوين والموضوعات والمقالات التى احتواها هذا العدد ، نجد أنها جميعاً تعنى إما بتاريخ العرب ، أو بشخصيات مشهورة فى التاريخ العربى خلال العصور المختلفة وفى الأمكنة المتباينة ، سواء فى الشرق أو الغرب . وقد كتب نسيب عدة مقالات لهذا العدد بالذات أعطى لإحداها العنوان الذى نراه أعلاه . وبعد ثلاثة أعوام ، ضُمّت هذه المقالة إلى غيرها من المقالات التى ظهرت فى مجموعة الرابطة القلمية لعام ١٩٢١ .

ومن دراسة تاريخ العرب وأدبهم نعلم أن « الصمصامة » لقب أطلق على السيف الذى كان يستخدمه الشاعر العربى المحارب عمرو بن معدى كرب الزبيدى ، وقد اشتهر سيفه بنصله الحاد وقوة قطعه الخارقة وكبقية سيوف العرب المشهورة كان يرجع فى أصله إلى الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية[١] .

تدور المقالة التى كتبها نسيب حول تاريخ هذا السيف العربى ، وقد استخدم فيها الكاتب أساليب أدبية مختلفة ، حتى يظهر قيمة السيف والدور الهام الذى لعبه فى التاريخ العربى . وتشتمل المقالة على حوادث تاريخية عديدة

(١) Encyclopaedia of Islam, Vol. IV

ومتنوعة من تاريخ العرب فى الشرق والغرب . ويبدو كما لو كان نسيب قد أعطى الحرية الكاملة لأفكاره لتتجول عبر العصور لتطّلع على فترات ممتازة من تلك الأيام الخالية .

والذى أوحى له بكتابة هذه المقالة هو السيف العربى المحفوظ فى متحف نيويورك المعروف باسم "Metropolitan museum" وقد أُطلق على السيف اسم « السيف الإسبانى المغربى » : « "Hispano - moresque sword" » . وقد كان نسيب يكره أن يزور قاعات العاديات فى المتاحف « لكرهى أن أرى آثار الأمم القديمة المقدسة تعرض لأبصار غير خاشعة وقلوب غير فاهمة »[١] .

وكان من عادة نسيب أن يزور بقية القاعات فى متحف نيويورك بين حين وآخر ؛ يفعل ذلك مرة فى العام على الأقل بعد نزهة قصيرة فى المتنزه الأوسط Central Park فقد كان مشغوفاً بالفن ، ولا يضيره أن يقضى الساعات يتأمل التماثيل بالإعجاب والاحترام ، كالوثنى الذى يمجد أوثانه . وبالطبع لم يكن هذا ليؤثر على إيمانه فقد كان كما قال عن نفسه : « أو من بالله وباليوم الآخر أو بالحياة المُثلى بعد الموت حيث لاتتألق «الأرواح الجميلة »[٢] .

ولكن ، فى هذا العام بالذات شعر نسيب برغبة فى دخول قاعة العاديّات من المتحف المذكور . وبعد مروره على بقايا معابد قدماء المصريين والآشوريين دخل قاعة متوسطة الاتساع ، وبنظرة شاملة عرف أنها قاعة السلاح . كانت جميع أنواع الأسلحة معلقة هنا وهناك داخل صناديق زجاجية ، لم يشأ نسيب دخول القاعة والتجول بين محتوياتها نظراً لمشاعره الرقيقة وطبعه المسالم ، وفيما هو فى طريقه لمغادرة القاعة انجذبت عيناه نحو سيف فى صندوق زجاجى موضوع بجانب مدخل القاعة . وكان جزء من السيف مسلولا من غمده ، وموضوعاً على قطعة من الحرير منسوجة ومزدانة بطريقة شرقية . فاقترب من الصندوق وقرأ ما يلى :

---

(١) مجموعة الرابطة القلمية لعام ١٩٢١ ص ٢٩٢ .

(٢) مجموعة الرابطة القلمية لعام ١٩٢١ ص ٢٩٢ .

« سيف أبى عبد الله ، آخر أمراء العرب فى الأندلس أهداه إلى المتحف المركزى ... فى ... » .

ويصف نسيب مشاعره فى تلك اللحظة بقوله : « فرفعت رأسى وهو يطرق غصباً عنى ، وتراكضتْ أمام عينى نفسى تذكارات جميلة المطلع ، أليمة الخاتمة »[١] .

وكان على الشاعر الخيالى أن يسترجع حواسه ويعود إلى الواقع حتى يقنع نفسه أنه أمام سيف أبى عبد الله : « أمام رمز القوة المتبددة والمجد الضائع »[٢] .

وبالنظر إلى السيف نظرة فاحصة تبين نسيب شيئاً لم يكن قد لحظه أول مرة ، رأى على النصل كتابة رقيقة باللغة العربية ، فحاول قراءتها وإذا هى كما يلى :

جرِّدْ حسام الفتك من غِمْد الردى ... واضرب به هام الحواسد والعدى

لِمَ ذا التوانى عن متابعة الندى ؟ ... إنّ السيوف إذا تعلاها الصدى

حلفتْ مضاربها بألاّ تقطع[٣]

ولم يستطع نسيب أن ينزع نفسه من تلك البقعة ، فأخذ مجلسه فى مقابل السيف ، ودخل فى حالة تأمل فى كل ما كان يعرفه من تاريخ العرب ، حيث « استغرقت فى غيبوبة التأمل ، مخترقاً حواجز المتحف ، عابراً المحيط قاطعاً الفيافى طائراً فى جو بلاد العرب متصفحاً معالمها الدارسة مراجعاً تاريخها المجيد ومشاركاً أبطاله فى كل وقائعهم وسائراً تحت ألويتهم إلى النصر شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً ، إلى القادسية واليرموك ومصر وخراسان والهند والمغرب والأندلس » .

وفى صمت وخوف تجرأ نسيب على سؤال السيف عن أعماله ؛ فى أى المعارك حارب ؟ وأى ذراع نبيلة استخدمته ؟ وهل استُخدم من أجل استعادة

---

(١) مجموعة الرابطة ص ٢٩٣ .
(٢) مجموعة الرابطة ص ٢٩٣ .
(٣) مجموعة الرابطة ص ٢٩٤ .

الحق والدفاع عن الضعفاء ، أم كان ظالماً ومؤذياً للضعفاء ؟ ضعيفاً ومخذولاً أمام الأقوياء ؟

ثم انتظر ليسمع جواب السيف ، فأسئلته يجب ألا تترك بدون جواب . وما كان من السيف إلا أن أخذ يروى تاريخه من البداية إلى النهاية . وهذا الجزء من المقالة كتبه نسيب بأسلوب الحكاية أو الرواية تحت عنوان « حديث السيف » وقد بدأه بفقرة فيها إطراء يبيّن مشاعر نسيب ، وكان السيف مستعداً ليروى تاريخه بدافع السرور لوجود شخص يخاطبه بالعربية ، وإلا لظل صامتاً دون أن يكشف أسراره التى مازالت خفية على كل علماء الآثار [١] .

لقد أظهر السيف عدم المبالاة لكونه موضوعاً على الحرير ، أو مغمداً فى غمد مزوّق مزخرف ، وله مقبض جميل ! وهذا الغلاف « الذى يفتخر به الآخرون هو أردأ الحلل . وما لبستها إلا مرغماً حين خمدت جذوة العرب ، وسرى إلى عروقهم حب الزهو والترف ، فألبسونى مصاغاً من الذهب والفضة ، كما لبسوا الديباج والخز والشفوف »[٢] .

أصل السيف وتاريخه المبكر :

تخيل نسيب أن السيف أخبره بتاريخه المبكر ، عندما كان يلمع فى أعالى السماء على هيئة شهاب بارق . ولسبب غير معروف أرسل الشهاب إلى الأرض على هيئة نيزك ، وكان شرفاً له أن يسقط فى أرض عربية . وهناك التقطه قين يمانى وعرف قيمته ووضعه فى كوره وعمل فيه عاماً كاملا حتى أصبح سيفاً لامعاً مصقولا . حدث أن القين اليمانى قد أهدى السيف إلى « تُبّع » ملك « حمير » من قحطان . وقبل الملك الهدية آملا أن يكون هو السيف الذى سمع جده «قحطان» يقول عنه : إن بانتضائه بدء مجد العرب وبإغماده خمود جذوتهم .

ومرّت السنوات ، واشترك السيف فى معارك كثيرة وكان دائماً على رأس

---

(١) المجموعة ص ٢٩٥ .

(٢) المجموعة ص ٢٩٥ .

جيش« حمْير » وفتحت به بلاد كثيرة ؛ فى الشرق والشمال والغرب ، ما بين إفريقية وبلاد الفرس . ولزمت السيف فترة راحة بعد المعارك التى خاضها ، فعلقوه فى مكان محترم من المعبد ، حيث بقى هناك فترة من الزمن . وعلى غير توقع ، دخل المعبد شاب وسيم ، وأخذ السيف وقبله ثم علقه على جانبه وخرج صائحا : « لقد انتهبت أمجادنا أيها السيف ، وامتهنت عقائلنا ، فقد صار الحبشان أسياداً للعرب ، وانقضى ملك التبابعة ولكنك ستكون أيها السيف رفيقاً لى فى الجهاد ، فأنا سيف بن ذى يزن ، ولن أصبر حتى أستعيد حرية العرب »[1] .

وذهب سيف بن ذى يزن إلى القسطنطينية طالباً النجدة ، ولكنه لم يحصل على شىء ، فذهب إلى بلاد الفرس ، حيث نجح فى استمالة « كسرى » إلى جانبه ، فأرسل معه جيشاً فارسيًّا ، وكسب الحرب ضد الأحباش ، وأصبح سيف بن ذى يزن ملكاً على اليمن وأقام فى قصر « غمدان » .

ورافق « الصمصامة » سيده حتى اليوم الذى قُتل فيه بوساطة عبيده ، قبل أن يتمكن من طلب المساعدة . ثم سقطت اليمن تحت حكم الفرس ، ووجد أهل جنوب الجزيرة العربية أنهم قد استبدلوا سيداً بآخر .

وظل السيف ملقى بإهمال بين أسلحة أخرى فى مخزن السلاح ، حتى جاء اليوم الذى عُرض فيه فى السوق بوساطة بعض التجار الفرس ، وأصبح ملكاً لفارسٍ بدوىٍّ اسمه هانئ بن مسعود من قبيلة شيبان ، وقد استعمله فى موقعة « يوم ذى قار » .

يوم ذى قار :

كانت هذه إحدى معارك العرب المشهورة فى التاريخ الإسلامى ؛ تلك المعارك التى عرفت باسم « أيام العرب » . ولم يكن نسيب ليغفل هذه المرقعة الفاصلة التى انتصر فيها العرب على الفرس . فهو يذكر السبب الأصلى للحرب ،

---

(١) المجموعة ص ٢٩٧ .

ومنه يتضح وفاء قبيلة « شيبان ». فقد كان الملك النعمان ، قبل أن يقتله الفرس قد ترك ماله وأسلحته فى حوزتهم ، فطلب كسرى أن يتسلم الأمانة ، ولكن قبيلة « شيبان » رفضت خيانة النعمان . وكان النصر فى « ذى قار » معوِّقاً كبيراً للفرس فى محاولاتهم لإخضاع العرب .

أثناء الحملات الإسلامية :

وكان من أعظم المحاربين الذين امتلكوا السيف فى أول الإسلام « خالد ابن الوليد » الذى سماه الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) « سيف الله المسلول » ويظهر « الصمصامة » سروراً كثيراً وفخراً أنه كان فى يد خالد عندما حارب فى معركة « اليرموك » حين هُزم البيزنطيون .

ويذكر عريضة أن الشخص العظيم الثانى فى الإسلام الذى استعمل السيف هو الفارس العربى المشهور « عمرو بن معدى كرب الزبيدى » وكان شرفاً عظيماً له أن يمتلكه بطل مثله[١] ولم يكن غريباً أن يطرب لهذا المجد، فقد لعب دوراً بارزاً فى معركة « القادسية » التى تحدث عنها المؤرخون بقولهم : « إن يوم القادسية الذى جعل العرب أسياداً على العراق غربى دجلة ، يعد من أكثر الأحداث شهرة فى الفترة العظيمة التى تمت فيها الفتوحات الإسلامية. فقد وضعت الأسس لسيادة دين محمد فى الشرق الأدنى »[٢] .

وامتلك السيف كثير من قواد العرب خلال الفتوحات الإسلامية ، ولكن أشهرهم وأحبهم إلى « الصمصامة » كان « قتيبة بن مسلم »، الذى امتلكه لمدة عشر سنوات ، وفتح به بخارى وتركستان والصين . واستخدم بعد ذلك فى مواقع كثيرة بعد موت قتيبة ، وتم فى جميعها النصر ماعدا واحدة هى : موقعة طوروس .

---

(١) كان عمرو زعيماً لقبيلة عربية ، وكان شاعراً . يرجع أصله إلى قبيلة عريقة هى بنو زيد فى اليمن ؛ ويوصف دائماً كرجل ذى قوة جسمية خارقة .
(Encyclopaedia of Islam Vol. 1. p. 336)

(٢) Encyclopaedia of Islam. Vol. II p. 612-613.

أول رحلة إلى أوربا :

وبطريقة أو بأخرى ، وصل السيف إلى الأندلس ، وتصادف أن باعه تاجر يهودى للمحارب العربى « عبد الرحمن الغافقى » الذى كان يحكم الأندلس. وكان شرفاً للصمصامة أن يختاره الغافقى من بين كل سيوفه ليصحبه فى قتاله فى أوربا ، ولكن للأسف تسبب سوء الحظ فى هزيمة القائد العربى ، الذى قتل وهو يحمل سيفه القيم فى معركة « بواتييه » التى عرفت فى التاريخ العربى باسم « بلاط الشهداء » وكانت هذه نهاية محزنة للسيف اللامع الحاد ، حيث بقى فترة يرقد بين جثث القتلى ، ثم دُفن فى التراب ، ظانًّا أنه قد وصل القبر الذى سيرقد فيه إلى الأبد . فإن تلك الهزيمة بالنسبة إليه . هى نهاية مجد العرب .

ولكن القدر كان قد رسم الطريق الذى سيسلكه السيف . كان فلاح يحرث أرضه ذات يوم ، غير عالم أنه إنما يطأ برجليه على بقايا جثث الشهداء العرب ، عندما لمح السيف فجأة يلمع فى الثرى . ومن الفلاح انتقل إلى تاجر العاديات ، ثم إلى يد الصانع الذى صقله ووضعه فى غمد وجعل له مقبضاً جديداً . ثم بيع إلى الإمبراطور « شارلمان » الذى بعث به مع هدايا أخرى إلى هارون الرشيد .

مرة أخرى فى أيدى العرب :

وفرح السيف بعودته إلى أهله ، ولكن فرحته لم تطل ، إذ أن الرشيد أبقاه صامتاً دون حراك ، مع بقية الأسلحة فى المخزن . ولسوء حظه لم يرسل ليلعب دوراً فى حملات الرشيد ضد البيزنطيين . ولكن عندما اختاره الرشيد مرة من بين بقية السيوف ، لم يكن فخوراً بالدور الذى كان عليه أن يلعبه أو العمل الذى أداه ، فقد كان الرشيد غاضباً حين سلم السيف إلى جلاده « مسرور » منشداً قوله :

دونك أمر قد بدت أشراطه إن السبيل واضحٌ صراطُهُ
لم يبق إلا السيف واختراطُهُ .

ومن السهل أن يخمّن القارئ ذلك الأمر الذى كان على مسرور أن ينفذه، كان ذلك هو قطع رأس « جعفر بن يحيى البرمكى » وزير هارون الرشيد ونديمه المحبوب . ثم حدث أكثر المناظر إيلاماً للنفس ، حينما استخدم السيف فى قطع رأس الأميرة الحزينة الباسلة العباسة أخت الرشيد .

تلك كانت المرة الأولى التى شعر فيها السيف بالامتعاض لذلك الدم الذى يلطخ جوانبه . وعندما حمل « مسرور » رأس جعفر والعباسة ووضعهما تحت قدمى الرشيد ، قام الرشيد من مقعده وسالت الدموع على خديه ، وبأنة ثقيلة قال لخادمه : « اكسر هذا السيف ، فإنى لأكره أن أرى آلة فجعتنى بأختى وخليلى ، مهما يكن ذنبهما عظيماً »[1] .

ومن حسن الحظ أن الجلاد لم يستطع كسر السيف . فأمر الرشيد بأن يعطى لحداد يقضى عليه بمطرقته ، ولكن الفضل ابن الربيع ، الوزير الجديد لهارون ، خلصه من يدى مسرور واحتفظ به كرفيق صامت حامل لأسراره حتى مات حزيناً على حالة قومه وتضعضع أمرهم .

الرحلة الثانية والأخيرة إلى أوربا :

ومرت سبعمائة سنة ، لم يحدث فيها شيء ذو بال ، نام السيف خلالها ساكناً صامتاً فى مخازن الأسلحة ، وكم من مرة اشتاق فيها السيف إلى الانتضاء من غمده والمشاركة فى إعادة توحيد الإمبراطورية العربية ، التى مزقتها النزاعات الداخلية وحولتها إلى ممالك صغيرة . وكان أفضل له أن يبقى مدفوناً فى الطين فى بلاد بعيدة ، بدل أن يعلوه الصدأ ويشعر بالتخاذل عن القيام بأى مجهود .

---

(١) المجموعة ص ٣٠١ .

وفى السنوات التالية، نقل القدر السيف من تاجر إلى آخر ومن بلاط إلى بلاط، حتى وجد نفسه فى « غرناطة » حيث أهداه تاجر يهودى إلى ملكها «عبد الله» الذى أعجبه مضاؤه ولم تعجبه بساطته وخطر له أن يكسوه حلة من الزخرف والتبرج والفخفخة : فأمر صائغه بتحليته ، فجعله ذا قبضة ذهبية ونصل منقوش مزخرف وكتب عليه الأبيات التى ذكرناها سابقاً .

ولم يطل عليه الأمر حتى جاء اليوم المنتظر وجرد للمرة الأخيرة ، فقد استخدم ليحمى ملك العرب من هجوم الإسبان ، ولكنه كان يشعر بضعف « فأخففتُ ونبتْ مضاربى لأن الزينة التى تكسرنى خففّت كثيراً من حدتى . وما ذنبى إذا كان الله يريد أن يعلّم العرب أمثولة ينتفعون بها فى المستقبل؟ »[١].

وبعد سقوط العرب فى الأندلس ، انتقل السيف إلى أيدى الأوربيين ولم يستعمل بعد ذلك . وتنقل بين المتاحف حتى وجد نفسه فى متحف نيويورك ، الذى بقى فيه .

ويشعر نسيب أن هناك حالة مشتركة من الفهم والاتصال الروحى بينه وبين السيف الذى يرقد فى صمت أمامه ، فمن خلاله يعبّر عريضة عن آماله ومخاوفه ، فى الفقرة الأخيرة من حديث السيف : « أنا الآن سجين ، وربما كنت مثلى فى بلاد لا أظنها بلادك . وبى حنين شديد إلى القتال تطرق منه الصدأ إلى قلبى وكأن النار السماوية التى كمنت فىّ قد أخذت تتأجج وتجبرنى على أن ألتهم نفسى ، لأنه ليس لى من يأخذنى فيضرب بى ضربة الحرية والمجد فيطفىء غليلى بجرعة من النجيع القانى تجدّد رونقى وتنعش روحى » . ثم يسأل السيف نسيباً :

« قل لى : ألا يزال قومك راضخين خاملين مستعبدين ؟ أليس فيهم من ينقذ السيف من سجنه ، فيعيد بجده أمجاد قحطان الذى استلنى لأول مرة ؟ »[٢]

---

(١) المجموعة ص ٣٠٣ .

(٢) المجموعة ص ٣٠٤ .

اليقظة :

لم يستطع نسيب أن يترك تعليقات السيف على الحوادث — خلال حياته الشائقة — أو تساؤلاته بغير إجابة . فى حالة من المزاج المتفائل التفت إليه فى احترام وإعجاب وقال : « هدئ روعك أيها الهندوان المجيد ، واعلم أن العرب قد تحركوا لنهضة ستملأ الأرض خيلاً ورجالاً لإعادة أمجادهم»[١] . ولم يكد صدى الكلمة الأخيرة يتلاشى حتى خيل إليه أنه يسمع السيف يصرخ صرخة جذلة ، أيقظته من أحلامه وجعلته يتلفت حوله . وفى نفس اللحظة شعر بيد تلمس كتفه فى رفق ، وكانت تلك يد حارس المتحف يسأله أن يغادر القاعة فقد حل أوان إغلاقها :

وبنظرة وداع للسيف وجد نسيب نفسه ينهض مغادراً المكان وهو ينشد من شعر المعتمد بن عباد :

كذا يهلك السيف فى جفنه ... إذا هُز كف طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعتقله ... ولم تروه من نجيع يمينى
ألا شرفٌ يرحم المشرفىّ ... مما به من سمات الوتين
ألا كرمٌ ينعش السمهرىّ ... ويشفيه من كل داء دفين[١]

ومازال السيف يرقد فى صمت عميق ، حين غادر نسيب قاعة العاديات واختلط بجموع السائرين فى مدينة « نيويورك » الكبيرة .

ليس من قصدنا أن ندخل فى تفاصيل الحقائق التاريخية المذكورة فى حديث نسيب عن « الصمصامة » فما من شك فى أنه قد استقى معلوماته من مصادر موثوقة فى تاريخ العرب . والأحداث الرئيسية فى مقالته هى حقائق معروفة نجدها مذكورة فى تاريخ « الصمصامة » فى المصادر العربية والأجنبية[٣] أما بعض التفصيلات التى ذكرها نسيب للأحداث المعينة ، مثل موت جعفر والعباسة

---

(١) المجموعة ص ٣٠٤ .
(٢) المجموعة ص ٣٠٥ .
(٣) Encyclopaedia of Islam Vol. IV

فتروكة له ليصفها بأسلوبه . وفى الغالب أن الحقائق هنا قد اختلطت بالتخيلات لتعطى رواية المأساة نوعاً من التشويق والتلوين .

ولكونه واحداً من أكثر الأعضاء ثقافة فى الرابطة القلمية ، فقد أحب نسيب أن يستظهر ثقافته ويعرض — بأسلوب غير فضولى — معلوماته التى اكتسبها من خلال قراءاته المستمرة ، فهو فى كتاباته يتحدث عن أجداده الفينيقيين وكيف كانوا يرحبون بالربيع[١] وقراءاته فى الفلسفة الإسلامية تتضح فى استخدامه تعبير — علة العلل[٢] ولديه ميل قليل إلى استخدام بعض المصطلحات مثل « ذهبت لأداء فريضتى ، بل حججت إلى كعبة الفن »[٣] .

وفى الواقع أن نسيباً يستخدم هذه العبارة الأخيرة ليعبر عن حبه للفن والاحترام للفنانين ، تلك المشاعر التى شاركه فيها معظم زملائه فى الرابطة ، وكان زعيمهم جبران فناناً ، إلى جانب كونه شاعراً وكاتباً . وكان نسيب يشجع الفن لدرجة قصوى فى مجلته « الفنون » كما سنلاحظ فى الفصل الآتى .

وأهم ما فى هذه المقالة التى عرضنا لها فى الصفحات السابقة ، هو طريقة نسيب فى النظر إلى الموضوع والحديث عنه ؛ ذلك الأسلوب المباشر وغير الرسمى فى المقدمة ، ثم فى السيرة الذاتية التى قدمها السيف لنا ، ثم العرض التاريخى الخيالى للسيف بأسلوب طيّع يعكس رأى الكاتب فى موضوع أحسّ به بقوة . ثم استجابته لكلمات السيف ؛ تلك الاستجابة التى تكشف عن أفكاره الخاصة وأحاسيسه . وبهذه الطريقة أمكننا أن نتبعه خلال سنوات نهضة العرب ثم انحطاطهم ، كل ذلك فى أسلوب طبيعى مبسط . وأحياناً يعثر القارئ على كلمة أو تعبير استقاه من قراءاته الواسعة فى الأدب العربى القديم ، مما يعطى كتابته نكهة كلاسيكية خاصة ، إلى جانب البساطة والوضوح .

---

(١) المجموعة ص ٢٩١ .
(٢) المجموعة ص ٢٩٣ .
(٣) المجموعة ص ٢٩٣ .